يا ويح شعب ضيع العنوانا

بـــردى الـــذي روّى الـــورى أزمانـــا ... الآنَ والهفـــي غـــدا ظمآنـــا
قـد كـانَ روحـاً للنفـوسِ، وراحـةً ... واليـومَ!... أرجـعَ ربُّنـا مـا كانـا!
أوَلـم تكـن ذكـراهُ تـروي أنفسـاً ... ذابـتْ حنينـاً كـي تـراه عِيانـا!
مـن كـلِّ فـجٍ كـمْ أتتـهُ قوافـلٌ ... جعلـت مطاياهـا لـه التحنانـا!
لـمْ يبـقَ منـهُ بعـد أن عـاثوا بـه ... إلاّ منـاظرُ تبعـثُ الأشـجانا
كـمْ أنذرتنـا بالجفـافِ دموعـهُ ... وكـمِ اسـتجارَ وقـد غـدا حرّانـا!
لـم يلـقَ معتـبِراً، ولـمْ يـرَ منصفـاً ... ممّـا دهـاه، ولـمْ يجـدْ آذانـا
اللهُ أجـــراهُ ليحيينـــا بـــهِ ... وللِهونـا شـئنا لـهُ الجريانـا
للسـاهرينَ الليـلَ سـاقوا مـاءهُ ... قسـراً ليبهـجَ مـاؤهُ الندمانـا
والغوطتـانِ تشـكتا، وصحابـهُ ... ظمـأ... فضـجَّ لهـدرِهِ غضبانـا
طوعـاً روانـا أدهـراً، وقـد انـزوى ... لمّـا أذاقـوا أهلـهُ الحرمانـا
كـمْ ذا تدفّـق، والجيـوشُ تدفقـت ... تغـزو فتكسـبُ مـا غـزتْ أوطانـا!
مـا ارتـدَّ جنـدُ الفتـحِ يومـاً لا، ولا ... ظمِئـوا... وكيـف وريُّهـم بردانـا!
وذوى فـراحَ إباؤنـا يـذوي، وهـا ... قـد بـاتَ يشـكو أسـرَهُ أقصانـا
مـا حرّكـت فينـا مصـائبُ قدسـنا ... حِسّـاً، ولا هـي ألهبـتْ وجدانـا
أوطـانُ قومـي لـم تعـد تعنـي لنـا ... وطنـاً سـقتهُ في الزمـانِ دمانـا
وتكـادُ تنكـرُ أننـا سـكانُها ... لمـا نسـينا كونَنـا سـكانا

نحيا ونَسْيُ اللهِ أنسى أننا ... من حُمِّلوا للعالم القرآنا
الماءُ جفَّ، وقبلهُ جفَّ التقى ... لمّا غدونا للهوى عُبدانا!

❖❖❖

بردى الذي روَّى خيولَ جهادنا ... لمْ يلقَ خيلاً فانزوى خزيانا
كمْ سرَّ في شطَّيهِ، وارتاحَ امرؤٌ ... ليعودَ مشبوبَ القوى جذلانا!
ولكمْ تلاعبَ حولهُ من فتيةٍ ... ولكمْ أراحَ الشيبَ والولدانا!
ولكمْ تناجى العاشقونَ بظلِّهِ ... وأظلَّ في أفيائهِ خِلاَّنا!
ولكم تسرَّبَ في النفوسِ صفاؤهُ ... وأزالَ منها الهمَّ والأحزانا!
نشوانَ يمرح في الحقول مغرِّداً ... يدعو إليهِ كلَّ من قد عانى
ترد الطيور وترتوي من مائهِ ... وترى بظلِّ الغوطتينِ أمانا
فتقيمُ أعشاشاً، وتُخرجُ عندهُ ... جيلاً يسبحُ ربَّه الرحمانا
ويزيِّنُ الدنيا ويُسكرُ سمعها ... لما يصبُّ بسمعها الألحانا
ولكمْ أتتهُ الراتعاتُ ملولةً ... عطشى... فروَّاها كما روَّانا!
عادت وملءَ جسومها خيراتُها ... لننالَ منها كل ما أغنانا
ماذا تراني ذاكراً من فضلهِ ... ماذا؟ ومنهُ عُمِّرتْ دنيانا!
كانَ المعينَ على عبادةِ ربِّنا ... كم طهَّرَ الأرواح والأبدانا!
كان الملاذ لنا، وكان مراحَنا ... كانَ النعيم، وكانَ كلَّ منانِا
والآنَ والهفي عليهِ، وهل ترى ... يُجديهِ دمعي لو جرى هتَّانا!

لـو راح يجـري مـن أسـاهُ مدمعـي ... لحسـبتَ مجـراهُ غـدا ملآنـا

❖❖❖

يـا ربِّ عفـواً إن سـكبتُ توجُّعـي ... شـعراً علـى نهـرِ غـدا ظمآنـا
هـل كانَ بدعاً إن بكيْتُ مـن الأسـى ... مـن ظـلَّ يَغسِـلُ في الزمـانِ أسـانا!
لا ليـسَ بدعـاً إن أذعـتُ شـكاتهُ ... وبكيْتـه، ورحمتـه أسـيانا
أنـا لسـتُ أرثيـهِ، ولكـن أدمعـي ... سـالت لِمـا مـن ظلمنـا قـد كانـا
هـل مثلُنـا مـن كـانَ يعبـدُ ربَّـهُ ... واليـوم صرنـا نعبـدُ الطغيانـا!
هـل ضـاق ذرعـاً يـا تـرى بذنوبنـا ... فغـدت عليـهِ ذنوبنـا نيرانـا!
أم لـمْ يُطـق لمياهـه الهـدر الـذي ... أبكـاه منـا فـانتهى لهفانـا!
فـأذاع فينـا صمتـهُ لـو أننـا ... نصغـي لكـانَ لمـن وعـاه أبانـا:
أن الـذي يطغـى وينسـى ربَّـه ... لا ضـيرَ إن عـاشَ الحيـاة مهانـا
أومـا نسـينا الله فيـه، ولـم نكـن ... أهـلاً لمـا قـد خصنـا مولانـا؟!
فارتـاع منَّـا واسـترابَ لظلمنـا ... وكمـا أريناهُ الجحـودَ أرانـا
مـن ذا يعيـد لنـا تدفُّقَـه الـذي ... مـا جـفَّ لـولا مـا جنتـهُ يدانـا!
مـن ذا يعيـدُ لنـا عذوبتـه ومـا ... أسِـنتْ عذوبـةُ مائـهِ لولانـا!
مـن ذا يعيـدُ لنـا الطيـورَ وشـدوَها ... مـن ذا يعيـدُ حبورَهـا بريانـا!
مـن ذا يعيـدُ لنـا الفواكِـهَ حلـوةً ... أدنـتْ لنـا لقطافهـا الأغصانـا!
تعطـي أطايبَهـا بقـدرةِ ربِّهـا ... وتزيـدُ مـا زدنـا لـهُ الشُّـكرانا!

من ذا يعيدُ الصفوَ في أرواحنا ... ويعيدُ في أجسادنا الإنسانا!
من ذا يعيدُ الحبَّ عنواناً لنا ... يا ويحَ شعبٍ ضيَّعَ العنوانا!
من ذا، ومن ذا ألفُ من ذا لا أرى ... رداً عليها غيرَ ما أضنانا!
لا ليسَ إلاّ اللهَ إنْ عدنا لهُ ... سيزيلُ عنَّا كلَّ ما أشقانا
ويعيدُ في بردى المياهَ غزيرةً ... ويعيدُ أرضَ الغوطتينِ جنانا
ويعود يروي زهو خيلِ جهادنا ... وتعود للفتح المبينِ قوانا
ما كان ما قد كان من بردى سوى ... عِبرٍ... فهل هي أيقظتْ وجدانا!

❖❖❖

بردى حبيبي لا تلمْ صباً ذوى ... وأسالَ حرقتَهُ عليكَ بيانا
أنا لستُ إلاَّ مهجةً أشغلتُها ... بهوى بنيكَ وإن نسوكَ زمانا
لا لن يطول البعدُ عمَّا ترتضي ... لا لنْ تطيلَ أحبَّتي النسيانا
فهمو بنوكَ، وهم رجالاتُ الهدى ... وهم الألى قد جسدوا الإيمانا
أوما بهم تاهَ الزمان مفاخراً ... وبهم سيخفقُ في السماءِ لِوانا

❖❖❖

برداي أبشرْ نحنُ عندَ عهودنا ... وغداً ترى وجدانَنا يقظانا
اللهُ بالغفرانِ بشَّرنا غداً ... إنْ نحنُ عُدنا زادنا غُفرانا
ولنحنُ نحنُ العائدونَ إلى الهدى ... ولسوفَ يُحيي العالمينَ هُدانا
ما أقربَ الإحسانَ منه لمن هُدوا ... فإذا اهتدينا زادنا إحسانا
فإلى المهيمنِ بالمتابِ أحبتي ... فعسى يعودُ كعهدهِ بردانا